



الفصل الخامس

حكمة الموت



الفصل الخامس

حكمة الموت



تهديد

هذا العالم الذي نعيش فيه، مخلوق من قبل قوة عاقلة قادرة فاعلة حولته من غير وسيط ولا آلة من العدم إلى الوجود.

وهذه الحياة رحلة قصيرة غير محمودة العواقب إلى خاتمة المطاف، وهي تشبه همزة الوصل، أو الجملة الاعتراضية التي تنتهي بنا إلى جملة طويلة أكثر بلاغة، وأحلى ألفاظاً، وقد اقتضت الحكمة الإلهية البالغة أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومعبراً إلى حياة أخرى، إما إلى جنة وإما إلى نار.

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

على حد قول المعري:

وهذه الدار الفانية مزيج من الألم واللذة، والحزن والفرح، والإثم والعدوان والبر والتقوى، ليكون لكل ذلك ما وراءه حيث يقر كل في نصابه، وإلا انعكست براهين الحكمة، وموازين العدل.

أولاً: على سبيل التعميم:

أ- حكمة الأفعال الإلهية:

أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض والغايات ومصالح الكون المترتبة عليها شاهدة على حكمته تعالى، ناطقة بتنزهه عن العبث والغفلة. وبوسعنا نحن أن نستشف الكثير من ذلك وراء التكاليف الإلهية من أوامر ونواه، بل وراء جميع أفعال الخلق والتكوين.

والقرآن الكريم نفسه أصدق شاهد: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾^(١).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(٣).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٤).

وقديما قبل خلق آدم أبي البشر تساءلت الملائكة عن سر خلقه، والغاية التي تعود بالنفع من ورائه، مع أن المنتظر من الإنسان أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأجابهم المولى سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي أن الأفعال الإلهية، مهما بدا لنا من غموض حكمها، والأسرار الكامنة وراءها، أو خيل إلينا أنها خواء من كل ذلك، فليس الأمر في الواقع على ما نتخيل، وإنما هي ضحالة علم الإنسان، بل ومن هم أكبر من الإنسان، بجانب علم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وإذا كان أنزال الموت، بالإنسان، ليس إلا فعلا من أفعاله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو وحده من بينهما خلواً من الغاية والحكمة، وقد علمنا أن لا شيء من أفعاله على هذا النحو.

وإذن فعلينا أن نفر باللسان، ونصدق بالجنان، أن إنزال الموت بالإنسان له غايات عظيمة وحكم جلية. وهذا ما سوف نحاول فيما يلي أن نسبر بعض أغواره، ونزيح بعض أستاره.

ب- عدالة إنزال الموت:

من منظور بشري أرضي قاصر، ربما يخيل للإنسان أن هذا الإنزال شر الشرور، وأمر بالغ القسوة لا يمكن أن يعتذر عنه، أو ظلم صراح، وأحياناً يتساءل: أما كان من الممكن خلق هذه الحياة مجردة من هذا الألم الذي ينغص صفوها كي يستطيع الإنسان أن يعيش

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١.

(٢) سورة الحجر الآية ٥٨.

(٣) سورة الدخان الآية ٣٨.

(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

بلا توتر أو قلق؟

ومما يروى عن أبي العلاء المعري الأديب المتفلسف - والعهد على الرواة - انحراف
تصوراته فيعد الموت ظلماً من الباري، ويعاتب المولى عتاباً أحق جاهلاً:
ونهيته عن قتل النفوس تعمد وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لنا معاداً ثانياً ما كان أغنانا عن الحالين^(١)

هذا الإنسان في لحظات التساؤل المتسعة: نسي أن الخلق كله قد قدر منذ الأزل
تقديراً محكماً حسب نوااميس إلهية وقوانين ضابطة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢).
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٣).

أي قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسق مع
غيره من أفراد هذا الوجود الكبير^(٤).

وإيمان البشر بصدق هذه القوانين - والموت ليس بدعاً ولا شذوذاً - ينفي عن
أنفسهم حالة الشك فيها.

على أن خلق الطبيعة بدون خصائصها الأساسية ولوازمها، ممتنع، فإن الطبيعة هي
هي، ووجود الملزوم مرتبط بوجود لازمه، ولو خلقت الحياة على غير هذا النحو، لكانت
حياة غير هذه الحياة^(٥). وهذا ما نعينه بالعدالة الإلهية أي عدالة فعل الموت الملازم لوجود
الإنسان الناقص.

وأول سمة من سمات هذه العدالة، أن الفعل صادر من الله، فلا يتطرق إليه شك،
وأنه يعم الجميع، وهم أمامه سواء، وهذا أمر قد فرغنا منه في بحث حتمية وما إلى هذه
الحتمية.

(١) معجم الأدباء ج ٣ / ١٧٤.

(٢) سورة القمر الآية ٤٩.

(٣) سورة القمر الآية ٤٩.

(٤) في ظلال القرآن ج ١٩ / ١٣٨.

(٥) الزيني: ابن القيم وآراؤه الكلامية ص ٢١٥.

ثانيا : على سبيل التخصيص :

أ- بعض الحكم الملتزمة لحادث الموت :

١- جهلنا بوقوعه :

على الرغم من قساوة الموت، وما يترتب عليه من نتائج مؤلمة ومحزنة، فقد كان من الممكن أن يكون أشد قساوة وفضاعة، لو كشف لكل واحد يوم أو مكان وقوعه أو الحادث الذي قد يظن عابرا والموت كامن فيه. لو تصورنا أن هذا ممكن لتوقفت حركة الإنسان في هذا الكون، وظل هلوعا ينتظر يوم الموت، يعد الأيام واحدا بعد الآخر، دون أن ينتج أو يبدع أو يخترع. وترتب على ذلك توقف حركة الحياة وظلت في بداياتها الأولى تعيش في عصور ما قبل التاريخ لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. ولم يكن هنا وهناك ما نشاهده الآن من تقدم ورقي وازدهار وعمران ودول وحضارات.

فكل منا يعتقد اعتقادا جازما أنه سيموت، لكن ذلك لن يكون «الآن». ربما غدا أو ما بعد الغد وبين الغد وما بعده، تتقدم خطوات الإنسان في هذه الحياة، يبدعها، ويملاها حركة، ويطورها، ويبني الحضارات.

ومن ألطاف الرب تعالى، أن استأثر بهذا كله، فيما استأثر من علوم غيبية، وتركنا ننعيم بأوهامنا، ونظن أن الحبل ما زال على الغارب، وهو قد أحاط بالعنق، وأوشك أن يأخذ بالمخائق: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وفي هذا يقول أبو حيان التوحيدي: « ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وفي أي وقت يقع، ومتى تغادر هذه الحياة، وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة النازلة بالبشر والبلاء الذي يحل بالنفوس، لكان ذلك مفسدة ليومنا، وأزمة لنفوسنا، ومحنة شديدة علينا، وألما مستمرا نكابده في نومنا ويقظتنا، ونهارنا وليلنا.

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

فانظر كيف زوى الله الحكيم هذا العلم عنا، وجعل الخيرة فيه لنا»^(١). وهذه نعمة كبرى كثيرا ما نذهل عنها، ولا نتوقف عندها نتدبر ما تنطوي عليه من رفق وحذب ثم نشكره سبحانه.

٢- استمرارية الحياة:

الحياة كما نراها سلسلة متصلة، ليس بوسعنا إدراك نهايتها: حركة مستمرة من النماء والذبول والتجدد والأفول، هذه الزهرة تذوي ثم تموت لكي ينمو برعم صغير يطل من ثنايا الأرض، ويرفع رأسه ليستقبل شمس الصباح، وهذا حيوان كاد أن ينفق، فيأوي إلى ركن بعيد كأنها يريد أن يلاقي الموت على انفراد بعد أن ترك ذرية تحمل نفس خصائصه، وبهذه الذرية تستمر السلالات والأجناس.

وما ينطبق على عالم النبات والحيوان الأدنى، ينطبق على الحيوان الأعلى وعلى الإنسان؛ فهذا شيخ يرقد على الفراش يحتضر، وحوله أبناء وأحفاد أي أن الحياة لا تتوقف، فضلاً عن أن تنتهي فيما يبدو لنا.

إنها أبداً يانعة في الجملة، كأنها من هذه الأجساد التي تشوى في أعماق الأرض، والأشلاء التي تختلط بتربتها، تستمد الأرض جودتها وخصوبتها لتغذي شجرة الحياة التي تورق وتزهو وتثمر وتنتج ثمارها، أو قل يتجدد عنفوان شبابها، ويستمر دولا ب دورتها في حركة دائبة إلى أن يشاء الله أمرا كان مفعولا، لكأن كل ما في الحياة، وقود للهبها المقدس، كي تظل الشعلة مضيئة وهاجة. فنحن نموت لكي يحيا آخرون، والآخرون يموتون لكي يحيا بعدهم، وهكذا دواليك ولو فرضنا أننا مخلصون في هذه الحياة وأن الجيل الأول الذي صحب آدم مازال يعيش وكذلك الأجيال بيننا فأين هي الأرض التي تسع تلك البلائين التي تبدو بلا نهاية؟

من أين يأكلون؟ وكيف تتقدم الدول وتزدهر الحياة؟ إن البشر - في هذه الحالة - سوف يحاولون أن يخترعوا فعلاً مدمراً، يقوم مقام الموت كي يفنى البشر، ولا

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ١ / ٢٢٤.

أظن أنهم قادرون!، ولقد صدق فيلسوف المعرة إذ يقول:

لعل الموت خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه

إن شيئاً من الأمن تحت راية الموت هو الذي أتاح للبشرية مهلة من الوقت تسع لأعمال الفكر والتوصل إلى مبتكرات العصر.

يقول ديورانت: «ما لاحيلة إذا كان لا بد لنا من الموت من أجل الحياة؟ نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس، وخلايا في بدن الحياة.

إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها، ولو أنا عشنا إلى ما شاء الله، لحمد النماء، ولم يجد الشاب له مكاناً على ظهر الأرض»^(١).

وتقول مي زيادة (ت ١٩٤١ م) «ما الأرض والبحار وأبعاد الأفلاك، سوى مدافن دهرية إنما هي في الوقت معامل توليد وتكوين نحن نخلد الحياة بفنائنا، وهي تفنينا بخلودها»^(٢).

ويقول كامل الشناوي: «موت الأحياء تجديد للحياة يخلو مقاعد العجزة والمرضى والضعفاء لأحياء جدد قادرين، أصحاب أقوىاء، ولو لم يكن الموت لتجمدت الدنيا على حالة واحدة، أو ضاقت بمن فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك من مكانه»^(٣).

إن الموت هو الطاقة الحقيقة التي تتزود منها الحياة، فتجدد شبابها وتواصل رحلتها للغاية المرسومة لها. نعم «في قلب الموت تتجدد الحياة نفسها»^(٤).

٣- السأم من طول الحياة:

هذا الإنسان الكائن الحي الراقى، يتميز عن باقي الحيوانات بكثير من الصفات عدد الخالق الحكيم كثيرا منها في كتابه الكريم؛ فهو كفور وعجول، وجهول، وهلوع، وهو أيضا ملول.

(١) مباهج الفلسفة ج ٢ / ٣٠٥.

(٢) ظلمات وأشعة ص ٧٤.

(٣) بين الحياة والموت ص ٣٧، ٥٤.

(٤) مباهج الفلسفة ج ٢ / ٣٠٥.

والمثل حالة نفسية تعترى الإنسان نتيجة لرتابة الحياة وسيرها على منوال واحد، ونمط لا يتغير حتى لتتشابه أيامها ولياليها، وأحداثها، وتبدو مثل أوراق التوت، أو أمواج المحيطات، أو كحبات البازلاء المتشابهات.

هذه الحالة النفسية التي تعترى الإنسان، قد تصبح ملازمة له إذا امتد به العمر، وتغير الحال والأهل والخلان، ومضى من مضى، وبقي هو وحيدا أو شبه وحيد بلا عمل ولا دور، ولا نهي ولا أمر، يردد بينه وبين نفسه:

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهمو وخلفت في قرن فأنت غريب^(١) وعندئذ لا يكون العيش منغصا فحسب، بل تصوير الحياة نفسها عبئا ثقيلا، وصدق الشاعر العربي القديم إذ يقول:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم^(٢).
ومن يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبدا؟^(٣)
ويقول قطري بن الفجاءة:

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع^(٤)

بل ربما أصبح هذا الشيخ المتهدم عبئا على أقرب الناس إليه فيبلغ به السأم منتهاه ويتمنى الشفاء من الحياة كأنها داء عضال أعيا على الطب والأطباء يقول الشاعر في هذا المعنى:

وكل الفكاهات ممولّة	وطول التعاشر فيه القلى
وكل طريف له لذة	وكل تليد سريع البلى
ولا شيء إلا لله آفة	ولا شيء إلا لله منتهى ^(٥)

(١) ديوان أبي العتاهية ص ٣٤.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٠، والمعمرين من العرب ص ٦٦.

(٣) المعمرين من العرب ص ٦١ وأيضا طه حسين: حديث الأربعاء ج ١/ ٤٨ وأيضا الأغاني ج ١٨ / ١٤٤.

(٤) ترجمته في تاريخ الأدب العربي ص ٢٣٣ لبروكلمان.

(٥) ديوان أبي العتاهية ص ٢٠.

وفي خضم بحر الملل، يصبح مطلب الموت مطلباً ملحاً، وهو الحل الأمثل لمشكلة الإنسان لكنه هنا قد يكون له بواعث أخرى للذين يبحثون عن دروبه: «قالت امرأة من المتعبدات: والله لقد سئمت من الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لا شتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقاءه»^(١).

فالملل ليس وقفاً على مرحلة الشيخوخة، بل قد يتسلل إلى نفوس الكثيرين من شباب ورجال في أوج القوة، وليس للحياة معه معنى ولا طعم، بل تفقد كل بهجتها ورونقها، وربما دفع إلى الانتحار تخلصاً من عيش لا يطاق.

وفي هذه الحالة، إذا جاء الموت في موعده ليضع نهاية حياة التكرار والملل، والضيق والضجر، يكون نعمة أي نعمة، ولبساً لكل داء.

على أني أحس أن مأساة الشيخوخة جديرة هنا بلفتة خاصة:

أ - مأساة الشيخوخة:^(٢)

أعنى بمأساة الشيخوخة، حالة التغير الشامل من الناحيتين الجسمية والنفسية التي تعترى الإنسان حين يبلغ من الكبر عتياً، فتباعد بين ماضيه وحاضره، وتحوله إلى كائن حي غريب، فقد القوة الجسمية، والقدرة العقلية والتكيف النفسي، والتألف الاجتماعي. أي أن مجموعة التغيرات تكون - على شمولها - كبيرة ورهيبة: فالعود الصلب القوي، قد ضوى وتضعضع، والوجه المشع برونق الصبا والحيوية، جف ماؤه، وزحفت عليه التجاعيد، وانطفأ بريق العينين فيه، والقلب الضاحك ملأته أحزان الدنيا - حتى ليكاد المرء يتساءل من أنا؟ لولا أن نفسه التي بين جنبيه تؤكد أنه هو هو، رغم كل شيء. فيردد بصوت هامس مشروخ، وعبرات منسكبة مع أحمد بن أبي بكر الكاتب:

من كان يرجو أن يعيش فإنني أصبحت أرجو أن أموت فاعتنقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عرفت لكان سبيله أن يعشقا^(٣)

(١) الإحياء ج٤ / ٣٦٠.

(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد ص ٢٩٨.

(٣) راجع كتاب المعمرين من العرب، حيث يصور مأساة الشيخوخة بأقلام أصحاب التجربة والكتاب كأنه نعي لحياة هؤلاء الناس والتعلق بالأمل المستمر توقفاً إلى الموت الذي لا يأتي.

ومن خلال تصوير الرب سبحانه لأطوار التغير الإنساني نستشف مدى المأساة:
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(٢).

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(٣).

فمرحلة الشيخوخة المتأخرة - ببصمات الزمن الظاهرة والخفية - مأساة أي مأساة: «من يرد إلى أَرْدَلِ العمر، فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال فبعد العلم، وبعد الرشد، وبعد الوعي، وبعد الاكتمال، إذ هو يرتد طفلاً، طفلاً في عواطفه وانفعالاته، طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئاً، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئاً، طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط، ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة، لأنه ينسى أُولها قبل أن يأتي على آخرها»^(٤).

وقد تنتهي هذه الحالة إلى شرود ذهني بالغ، وفقد ذاكرة تام، أو ذهول متصل، أما الحطام الباقي من الجسم، فكومة مهملة لا تكاد يلتف إليها إلا من باب العطف، أو خوف الملامة.

(١) سورة غافر الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل الآية ٧٠.

(٣) سورة الحج الآية ٥.

(٤) في ظلال القرآن ج ١٧ / ٥٨٢ (تفسير سورة الحج).

والشعراء لم تغب عنهم هذه الظاهرة المأساوية، فهي تجربة حية لا تخطئها عين فكيف بحس شاعر مرهف:

يقول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب مته ومن تخطى يعمر فيهرم^(١)

ويقول قطري بن الفجاءة:

وما للمرء خير في حياة ذا ما عد من سقط المتاع^(٢)

ويقول أبو العتاهية:

المرء يأمل أن يعيش وطول عمر قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره^(٣)

وفي مجال الفلسفة يلحظ أن موقف سقراط الشجاع من الموت ربما يرجع إلى بلوغه السبعين من عمره حينما صدر عليه الحكم بالموت. وهو نفسه يفسر ذلك في محاوره اقريطون فيقول: «إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سنى فإن عليه ألا يجزع من اقتراب الموت»^(٤).

ويوضح أكرزيفون موقف أستاذه فيقول: «إن الموت سيسمح له (أي لسقراط) بتجنب ضروب العجز والبؤس المرتبطة بالشيخوخة لقد وصل إلى نتيجة هي أن الموت بالنسبة له أمر مرغوب فيه أكثر من الحياة. ومن الخير أن تتذكر في هذا الصدد أن الخوف من الشيخوخة البائسة كان يقلق الكثير من الإغريق»^(٥).

ويصف أحد الفلاسفة (وهو هولوباردي) أبعاد المأساة فيقول: «أما الشيخوخة،

(١) ديوان زهير ص ٣٠، خبط عشواء: أي تخطى خبط العشواء وهي الناقة لا تبصر ما أمامها ليلاً.

(٢) نفس هذه الفكرة ردها أكثر من شاعر.

(٣) ديوان أبي العتاهية ص ٢٠٩ وتجدها عند دريد بن الصمة الجشمي (المعمرين من العرب ص ٢١).

(٤) محاوره أقريطون: ص ٨٤ (من محاورات أفلاطون).

(٥) جاك شورون: الموت في الفكر الغربي ص ٥٠.

فهي الشر الكبير، لأنها تحرم الناس جميع المسرات، وتتركهم مع هذا يشتهونها ويقطعون الأنفس عليها حسرات، ولا يظفرون بغير المتاعب والأوجاع»^(١).

ماذا يبقى بعد ذلك إلا انتظار الموت.

لا أحد يستطيع أن يمد يد العون فيما لا تبلغه طاقة. الجميع في حالة ترقب وانتظار متى يجي الموت لكي يضع حداً للمأساة الشيوخوخة، وعندما يتاح يكون أفضل الحلول الممنوحة من القدرة الإلهية، لتصان كرامة الإنسان الذي كرمه الله في بدء الخليقة على سائر مخلوقاته.

ب- أمراض الجسم والنفس:

لا يقصد بهذا العنوان الفرعي إلا إبراز حالة أخرى من حالات السأم والضيق بالعيش وممارسة الحياة.

فهذا إنسان، ألم به مرض خبيث أو آفة خطيرة، أطاحت ببعض من أعضاء جسمه، أو حادث مؤسف أدى إلى بتر عضو أو آخر أو ما شاكل ذلك. ترى كم يعاني مثل هذا البائس من آلام نفسية وجسمية قد تستمر سنوات و سنوات لا سيما إذا تفاقمت به الحال حتى أصبح معدوداً من سقط المتاع: أليس هو إذن مصدر معاناة دائمة لا لنفسه فحسب، بل للجميع أيضاً: أهة طويلة لا تنقطع، وأنة حزينة يتردد صداها داخل داره، ودمعة حارة أثر دمة تنسكب آناء الليل وأطراف النهار؟

ولا تنسى أن الآلام النفسية، وإن كانت تسير هي والآلام الجسمية تختص بعضو من أعضاء الجسم، فإن الآلام النفسية تعم الجسم والروح وتغطيها بغطاء كثيف شامل لا يدع فراغاً أو متنفساً.

إن الموت في هذه الحالة هو المخلص الوحيد، والملاذ الذي نبحث عنه بكل إصرار

(١) العقاد: بين الكتب والناس ص ٣٢٣، والمفكر هو لباردئ، ثالث ثلاثة من قادة الفكر الذين اشتهروا بالنقمة والتشاؤم في الآداب الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو إيطالي جمع بين الفلسفة والشعر.

وعناد، ولولا مخافة الله لا اشتراه كل ذي فطرة نقية وقلب سليم بأفدح الأثمان.

وقد كانت مرت بالسيدة مريم العذراء « أم المسيح » أزمة نفسية من تلك الأزمات حينما حملت به من غير أب معلوم حسب المشيئة الإلهية - فماذا كان موقفها؟ أو حالتها النفسية؟ إن قولها هو الذي يكشف عن أعماق نفسها: « قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً »^(١). فهذا التمني للموت ليس بالأمر المستغرب إذ ذاك، بل هو حل أمثل - لو أتيح أو أبيح - للمعاناة النفسية التي تعانيها إنسانة قديسة طاهرة، كريمة المحتد، لها قلب ملاك وعصمة نبي، وصفاء رسول.

ويبرز الشاعر العربي ميزة الموت في تحرير الجسم والنفس من ريقة المرض وتطهيرها من آلامها، وعتقها من المعاناة المستمرة، وتقريبها من الحياة الباقية:

جزا الله عنا الموت خيراً فإنه أبر بنا من كل بر وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ويدني من الدار التي هي أشرف^(٢)

ويقول فيلسوف المعرة:

- ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد.

إن الحياة المقترنة بالآفات العظيمة، والمحن الهائلة، والآلام الشديدة، مثل أن يسبى الرجل وأهله وولده، ويملكهم قوم أشرار، حتى يرى في أهله وولده مالا طاقة به، فهذا كله مكروه وليس أحد يختار العيش فيه ولا يؤثر الحياة معه «^(٣). لذلك يستحب الموت بميل الفطرة، ونظرة العقل لا بأمر الشرع، ويسترسل إليه استرسال المستروح.

أما الدين، فصدق الرسول ﷺ:

« لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وأمتني ما كانت الوفاة خيراً لي »^(٤).

(١) سورة مريم الآية ٢٣.

(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد ص ٢٩٧.

(٣) أبو حيان ومسكويه: الهوامل والشوامل ص ٧٣.

(٤) رياض الصالحين ص ٣٢.

٣- الاستشهاد في سبيل المبادئ والعقائد:

في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، توجد مجموعة من الآراء والمعتقدات، والعادات والتقاليد وألوان من الثقافات المتعددة. وهذا ما يميز في الجانب العقلي كل مجتمع عن المجتمع الآخر، وعادة ما يتمسك بعاداته وثقافته كل التمسك ويدافع عنها بحرارة وصدق.

وتسود المجتمعات الإسلامية، على وجه أخص، مجموعة القيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية المستمدة من القرآن الكريم والسنة، والتي تواجه بالثقافات المادية والإلحادية، وقد قام على نشر الثقافة الإسلامية، في صدرها الأول، ودافع عنها، ومات في سبيلها رجال أشداء، خلفهم رجال أشداء، وهي ما تزال في حاجة ماسة إلى من يخلفهم جميعا ليحمل بدوره العبء الذي طالما حملوه، إلى أن يضعه على أكتاف جيل آخر، وهكذا دواليك وهنا تبدو حكمة من حكم الموت كأجل ما تكون. فصحابة الرسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان، لم يكن لهم مناص من الاستشهاد في سبيل تلك القيم العالية.

وعلى مر التاريخ كان الكثيرون من الأفراد والقادة يدفعون حياتهم في سبيل الدفاع عن أفكارهم، ومعتقداتهم ثمناً بخساً لأثمن وأغلى ما يمكن اقتناؤه.

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

فهذا هو الاختبار الإلهي للبشر لإظهار من منهم سوف يجعل هذه المبادئ أغلى من روحه التي بين جنبيه، ليتسنى إرساء أسس المجتمع الصالح ورفع بنائه الذي لا يأتي من فراغ، وأولئك هم الرجال الذين سارعوا إلى الاستجابة، وورثوا الأجيال بعدهم تبعة أي تبعة. وفي غير بيئة الإسلام - قديماً وحديثاً - ما لا يبعد كثيراً عن هذا الاتجاه.

وإليك بعض الأمثلة: يقول امرؤ القيس لصاحبه (عمرو بن قميئة)^(٢) الذي تبين

(١) سورة الملك الآية ٢.

(٢) ديوان امرؤ القيس ص ٩٥، وأيضاً الأغاني ج ١٨ / ١٤٤.

بعد ما كان يجهل أن الرحلة إلى قيصر الرومان، التماسا للعون منه والمدد: لا تبك ولا تحزن، لأن علينا واجبا مقدسا هو استرداد ملك الآباء، والانتقام من أولئك الذين ثلوا عروشهم، وإلا - يا صاحبي - فالموت أهون من الضيم.

جزا الله عنا الموت خيرا فإنه
أبر بنا من كل بر وأرأف
بكى صاحبي لما رأى الدرب
دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما
نحاول ملكا أو نموت فنعدرا^(١)

والفيلسوف اليوناني سقراط. الذي افتدى بحياته مبادئه وأفكاره التي اعتنقها ورفض الوقوع في شرك الإغراء بالهرب من السجن الذي دبره له تلاميذه، مؤثرا امتثال قوانين البلاد، واحترام أوامر المحكمة، حتى النهاية الفاجعة احتسائه بيده كأس سم «الشوكران» السام.

قد يمكن أن تسمى هذه شجاعة أدبية، ولكنها خطأ لا شك فيه، لأن من أكبر الجنايات التي لا تغتفر على الحياة العقلية بعامه، أن يضحي بعقلية ضخمة - كعقلية سقراط - على مذبح الجهل والتجني، وثم طريق للنجاة مهما تكن ملتوية، ومدبرة في الظلام فإن هذا الظلام إذن هو أجمل من نور الصباح الذي يبهز الأبصار.

ونعماً ما فعل أرسطو - عقل الأكاديمية - إذ قال: لن أسمح للأثينيين أن يخطئوا في حق الفلسفة مرتين^(٢). ثم هرب من أثينا لئلا يلقي مصير سقراط.

وهذا بعينه هو ما فعله أفذاذ المصلحين وقادة الفكر والرأي في العالم كله بعد ذلك، وفي العالم الإسلامي أيضا: لا يدفع المصلح حياته إلا حيث لا يجد مفرا، لكنه يضحي بها راضيا، وهذا ما نجده عند من أسلموا النفس اضطرابا على أيدي الطواغيت، ومن هؤلاء الرجال الأخيار:

الجعد بن درهم (ت ١١٦ هـ) الحلاج (ت ٣٠٩ هـ)، وشهاب الدين

(١) ترجمته في الأغاني ج ١٨ / ١٣٩-١٤٤، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ١ / ١١٧.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١١٣.

السهروردي (ت ٥٨٧ هـ) وحسن البنا (ت ١٩٤٩ م) وسيد قطب (ت ١٩٦٦ م).

٥- إذلال المتكبرين والطفافة:

نفوس البشر مختلفة، وأفعالهم في الحياة متفاوتة، فمن ملتزم الصراط المستقيم، يعيش معتزاً بالمبادئ الخلقية متعلقاً بأهداب الدين، يعرف ماله، وما عليه، لا يحيف ولا يجور، ومن منحرف عن الطريق السوي، يأتي المنكرات ويذل الكبير، ويهين الصغير، حتى تبلغ به الجرأة أن ينصب نفسه الفانية إلهاً في الأرض من دون الله، كأنها ينطق بلسان فرعون: «أنا ربكم الأعلى».

في هذا الموقف، كم يتمنى ملايين البشر الموت الزؤام لهذا الظالم؟ وكم يدعوا المظلومون عليه وتتصاعد أناتهم في جوف الليل، مع نشيج بكائهم تطلب من الخالق الجبار الانتقام والتنكيل بهؤلاء الأقزام، بعد أن نسوا حقيقة أنفسهم، وإفساح المولى لهم، إنه الإمهال لا الإهمال: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

إذلاً هؤلاء المتجبرين الطغاة يأتي الموت حتف الأنف، فيمرغ في التراب أنوفهم، ويدس تحت الأقدام أجسادهم، كأبي بائس مغلوب على أمره لا حول له ولا طول. هذا قبر مهما ازدان، وذاك قبر مهما استكان، في الموت يتساوى الجميع، الملك والرعية، والأمير والحقير، والغني والفقير. وصدق أبو العلاء المعري وهو يشير إلى التراب الذي عاد إلى أصله:

خفف الوطاء ما أظن أديم	الأرض من هذه الأجساد
رب لحد قد صار لحداً مراراً	ضاحك من تزاحم الأضداد
ثم يقول آخر:	

لو عرف الإنسان مقداره	لم يفخر المولى على عبده
والواحد المفرد في حتفه	كالحاشد المكثّر من حشده

وصدق أبو العتاهية فيما هو دون ذلك:

(١) سورة الحجر الآية ٣.

ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى^(١)

ألا نتبين هنا حكمة بالغة من حكم الموت: «سبحان من كتب الموت على عباده فأذلم به هدماً، وكسراً، ثم بث بذور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقاً وجعله لكسر الموت جبراً، وتنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضرراً»^(٢).

وهكذا فالموت إذا وقع خبط عشواء، يصيب ويخطئ بالصدفة العمياء. إنه ضرورة ليس عنها من غنى، لاستمرار الحياة، ولإنقاذ الإنسان من السأم والملل.

ولوضع حد للأمراض الخبيثة التي تفتك بالأبدان، وتحطم النفوس، ولتتويج المجاهدين الأبطال الذين سارعوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض بتيجان الشهداء الأبرار، ولإذلال الآلهة الصغار الذين أفسدوا كل شيء.

هذا قل من كثر، وجهد المقل، بل قطرة من بحر، لكشف الحكم الإلهية الكامنة وراء هذا الحدث الم هول: الموت.

(١) ديوان أبي العتاهية ص ٢٢.

(٢) الإحياء ج ١ / ٢١.